الفصل السادس

« ... لشعب بلا أرض »

بحلول سنة ١٨٨٠م، كانت غالبية يهود العالم البالغ عددهم ثمانية ملايين تقريبًا تعيش فى شرق أوروبا، للأسباب التى شرحناها فى الفصل الثالث. وكان هناك حوالى أربعة ملايين يعيشون فى الأراضى التى حازتها الإمبراطورية القيصرية الروسية فى غمرة توسعها غربًا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. هذه المنطقة التى امتدت من ليتوانيا فى الشمال إلى البحر الأسود فى الجنوب، ومن پولندا فى الغرب إلى «روسيا البيضاء» وأوكرانيا فى الشرق، صارت معروفة **بأنها نطاق الاستيطان**.

أدت السياسات المعادية التى انتهجها القياصرة المتعاقبون إلى تركيز اليهود فى هذه المنطقة. وحسب أسطورة صهيونية ذائعة ومنتشرة جدًا، كان أولئك اليهود يشكلون «شعبًا بلا أرض».

استخدمت هذه الساحة بمثابة معمل تقطير شاسع لكل الاتجاهات الاجتماعية اليهودية البازغة ولكل الحركات السياسية اليهودية التى تحاول الظهور: الذوبان فى المجتمع، والهجرات الجماعية باتجاه الغرب ولا سيما أمريكا، والمشاركة اليهودية الضخمة فى الأحزاب الاشتراكية النامية بسرعة؛ ونمو الحركة الصهيونية. وثمة حدث يعلو على كل الأحداث الأخرى، يلوح فى الأفق بحتمية كئيبة مرعبة، سيكون بمثابة خميرة تهيج كل هذه الاتجاهات والحركات، بيد أن ذلك سيكون فى اتجاه مناقض: ذلك الحدث كان هو الثورة الروسية. فقد كانت الثورة الفرنسية التى وقعت سنة ١٧٨٩م. قد رفعت وعدًا بالتحرير النهائى والدائم لليهود فى أوروبا الغربية. كان اليهود أبعد من أن يكونوا شعبا بلا أرض، وإذا كان للوعد أن يتحقق، فإنهم سيكونون أصحاب حقوق متساوية، ومواطنين شرعيين لهم حقوق متساوية فى الأرض المستقرين عليها، والتى ولدوا على ترابها. وبطبيعة الحال، كانت نزعة العداء لليهود ما

تزال موجودة. ومع ذلك أحس أولئك اليهود بثقة جديدة وأمان جديد يضربان بجذورهما فى الدستور الديمقراطى أو التشريع البرلمانى. وعند نهاية القرن التاسع عشر، سوف تطرح الثورة الروسية نفس الوعد ليهود أوروبا الشرقية.

حقًا، استغرق الأمر عدة عقود لكى تظهر أول الموجات التى كانت متوقعة من جراء هذه الدراما التاريخية التى هزت العالم وتركت أثرها على منطقة الاستيطان. ومع هذا فإن التحديث والرأسمالية، وهما بمثابة محركات الثورة، على شكل حركة التصنيع، قد خلقا بداية بطيئة، ومعيبة فى منطقة تمركز اليهود بأوروبا الشرقية. ذلك أن آلافًا من اليهود الريفيين الفقراء والحرفيين المعدمين، وأصحاب الحانات السابقين، والتجار الصغار، والباعة الجائلين، والفقراء الذين يتحدث عنهم الفولكلور الألمانى اليهودى (اليديش Yiddish) (Deutscher 1968: 62)[1]، احتشدوا فى البلدان والمدن. وكان معنى المهارات الحرفية لدى اليهود والتى تراكمت خلال القرون فى تراث حرفى أن الحرفيين هم الذين تأقلموا بسهولة أكثر مع البيئة الحضرية. وناضل الباقون قدر طاقاتهم. بيد أن شيئًا واحدًا كان واضحًا: هو أن البنية التحتية الاقتصادية اليهودية فى شرق أوروبا العصور الوسطى كانت تختفى بسرعة.

ويلتقط المؤرخ الصهيونى داڤيد ڤيتال القصة (Vital 1975: 31-60). عند بداية القرن التاسع عشر، لم تكن هناك أية جماعة يهودية يزيد عدد أفرادها عن عشرة آلاف نسمة فى نطاق الاستيطان. وبنهاية القرن، كانت هناك أربعون جماعة يهودية يبلغ عددها الإجمالى مليون ونصف مليون نسمة، أى ثلث عدد السكان اليهود.

وفى حد ذاتها لم تكن عملية الهجرة الداخلية هذه لتؤدى إلى جعل السكان راديكاليين يسعون وراء تغيير جذرى. إذ إن هذه الجماعات المنكفئة على نفسها، المتماسكة، التى كانت لغة اليديش [هى لغة عرفتها الجماعات اليهودية بشرق أوروبا فى العصور الوسطى، وهى مزيج من الألمانية وبعض المفردات العبرانية] هى اللغة الأم لـ ٩٨٪ منها، قد تمكنت بشكل أو بآخر من إعادة بناء نفسها فى البيئة الحضرية. ولكن القياصرة فرضوا سياسة واحدة محددة وكريهة «غاصت فى أعماق الوعى الاجتماعى والسياسى بلهيبها»: وهى سياسة التجنيد الإجبارى.

فقد كان على اليهود أن يقدموا عـشرة شبان عن كل ألف من السكان اليهود للخدمة العسكرية فى الإمبراطورية، مقارنة بسبعة عن كل ألف من السكان غير اليهود. وبالنسبة لليـهود تم تخفـيض السن من ثمانـية عشـر عامـًا إلى إثنى عشـر عامًا. وكـان المجندون الأطفال والمراهقون يوضعـون فى مؤسسات إعدادية خاصة للـتدريب العسكرى، حيث كانوا يخضـعون لتعليم خاص كـان يتضمن بالنسبة للشـبان اليهود نظامًـا يجبرهم على قبول الديانة المسيـحية. وكانت لهذه السياسـة عاقبة واحدة غير مـقصودة على أية حال. ذلك أنها جهزت أقلية من اليهود للنضال المسلح ضد النظام نفسه.

كان التجنيد الإجبارى مكروها فى جميع أرجاء الإمبراطورية «كان مثل الموت ـ كان التـفكير فى الجندى بالبيت يمزق قلب المرء بلا فائدة» على حد تعبير الروائى الروسى العظيم ليو تولستوى.

وقد أججت كراهية التجنيد الإجبارى السخط العام على القياصرة. وفى كل أنحاء الإمبراطورية، وبالنسبة لكل الناس والقوميات والطبـقات الاجتـماعيـة، بعـيدًا عن عناصر الأرستقراطية المستقرة تمامًا، امتزجت بإدراك متزايد للحرية التى تم تحقيقها فى غرب أوروبا عقب الثورة الفرنسية. وعقدت آمال عظيمة على القيصر المصلح ألكسندر الثانى فى ستينيات القرن التاسع عشر.

وبدأت مُثُل حركة عتق اليهود فى أوروبا الغربيـة تستحوذ على خيال اليهود فى شرق أوروبا. وقد كتب أديب صغير ولكنه يمثل يهود شرق أوروبا بدافع منها:

استيقظى يا إسرائيل ويهودا، انهضوا

انفضوا الغبار، وافتحوا عيونكم على اتساعها

إن العدل ينمو، والحق هنا

لقد نسيت خطيئتكم، وليس ثمة ما تخشون (Vital 1975: 43)

ومن المثير أن هذا التعديل العلمانى للنثر الوارد فى الكتاب المقدس، والذى سرعان ما يصير علامة مميزة للدعاية الصهيونية، تم وضعه أولاً فى خدمة حركة الاندماج فى المجتمع على غرار ما جرى فى غرب أوروبا. وقد تنبأ سير موسى مونتيفيورى زعيم

اليهود البريطانيين ـ بثقة ـ بإصلاح ديموقراطى ناجح سوف يحرر اليهود فى الإمبراطورية الروسية.

ولم يحدث هذا؛ إذ إن حماسة القيصر لإصلاح الإمبراطورية الروسية القائمة على ملكية الأرض فى العصور الوسطى كانت بطيئة أكثر من اللازم، كما أنها لم تكن متسقة فى نظر الحركة الديمقراطية الثورية البادئة فى الظهور. وفى سنة ١٨٨١م، تم اغتيال القيصر الكسندر.

كان الاغتيال نقطة تحول فى روسيا من جميع النواحى. إذ كان رمزًا لوجهة نظر الطبقة المثقفة المتنامية فى روسيا، والقائلة بأن الثورة هى الوسيلة الوحيدة لتحويل النظام القيصرى. وقد أدرك الكُتّاب العظام لتلك الفترة؛ تولستوى، وتشيكوف ودوستويفسكى حالة التوقع التى كانت تشكل تهديدًا وإثارة فى آن معًا. وأحس الحكام القياصرة بأن اللعبة على وشك أن تبدأ وجهزوا الأرض لأكبر رد فعل وهو الثورة المضادة.

المذابح

كان عام ١٨٨١م أيضًا هو العام الذى تضافرت فيه كل الآثار الاجتماعية طويلة المدى مثل الحركة التى أسيئ تدبيرها لتحرير الأقنان، والمجاعة، والبطالة الزراعية والصناعية. . لتضخم من حجم «جيش الحفاة» من الفلاحين الذين ضربهم الفقر والبروليتاريا المعدمة لا سيما فى جنوب روسيا. . وأراد النظام. . توجيه الطاقة المتفجرة فى الجماهير الهائجة من الفلاحين المضطربين الفقراء بعيدًا عن نفسه.

وفى الوقت نفسه. . كان الخوف من الفلاحين بشكل متزايد مع اتجاه لرؤيتهم، باعتبارهم خلاصة الناس، والنظر إليهم بصورة عاطفية للغاية. . وهو ما كان أشبه بنظرة الثوريين الشعبويين» (Vital 1975: 49 - 50).

كان الشعبويون الثوريون، «النارودنيك ـ Narodniks» هم أول من تحدوا الحكم الفردى. وكانت كوادرهم أساسًا من الطلاب، ومن ثم تبنوا استراتيجية تقوم على اغتيال الحكام مع منظور «الذهاب إلى الفلاحين» على أمل تعبئتهم من أجل الثورة. أما

النظام الذى كان قائمًا على أساس العدو الرئيسى للفلاحين، أى الأرستقراطية من ملاك الأراضى، فقد رأى أن هناك طريقة لتفكيك صفوف دعاة الثورة وإبعاد النار عن ملاك الأراضى، تمثلت فى توجيه الغضب والطاقة ضد اليهود (كذلك كان الشعبويون الثوريون يرون فى اليهود هدفًا مشروعًا لعداوة الفلاحين، ولكنهم سرعان ما غيروا موقفهم إلى موقف الإدانة من حيث المبدأ). (Frankel: 120).

«كان اليهود متناسبين مع الدور بشكل يدعو إلى الإعجاب. . . فقد كانوا مكروهين لا من الفلاحين وحدهم ـ والذين كانت علاقاتهم معهم فى الغالب على أساس وظيفة اليهود فى الاقتصاد عمومًا باعتبارهم تجارًا صغارًا، ووسطاء، وأصحاب حانات، ووكلاء ضياع ومرابين، ولكنهم كانوا يحظون أيضًا بكراهية مقيتة من أصحاب المناصب فى روسيا ـ أى رجال الإدارة والعسكريين، ورجال الكنيسة. . والقيصر نفسه» (Vital 1975: 51).

هنا إذن كانت تلك الثقافة السياسية الفاسدة لنظام حكم القياصرة وهو يعانى سكرات الموت.وهى الثقافة التى أطلقت عنان العصابات المائة السوداء من الجزارين السفاحين على اليهود، والتى سوف تزور فيما بعد وثيقة، كانت مفضلة لدى هتلر، وهى «بروتوكولات حكماء صهيون»، وهى الفنتازيا القيصرية الخيالية التى زعمت أن هناك «مؤامرة» يهودية لحكم العالم.

وبنهاية سنة ١٨٨١م، تعرضت ما يزيد على مائتى جماعة يهودية للهجوم من جانب عصابات الفلاحين وصغار المجرمين، على حين كانت الشرطة والجيش يغمضون عيونهم عما يحدث.

وعمومًا جرت المذابح وفق نموذج مشترك. فقد سجلت جريدة Le Temps الباريسية مذبحة اتسمت بدموية خاصة حدثت فى مدينة بالتا فى جنوب روسيا أثناء عيد فصح اليهود فى أبريل سنة ١٨٨٢م:

«بدأ الشغب بعد الظهر؛ واستعد السكان اليهود للدفاع عن أنفسهم، على حين كانت السلطات البلدية قد فرقتهم بالقوات التى ضربتهم بكعوب البنادق. وفى صباح اليوم التالى، عاود ستمائة فلاح من الريف المجاور الهجوم وواصلوه دونما أية عوائق.

لقد كان مشهداً من النهب، والحرق العمد، والقتل، والاغتصاب، مما يجعل المرء يرتجف من الرعب. . . فقد جرح ٢١١ شخصًا وقتل تسعة، كما اغتصبت الفتيات. . وهدمت معظم المنازل» (Vital 1975: 52-3).

لقد كسرت المذابح مرة وإلى الأبد «نزعة الجمود والقدرية المتأصلة بعمق فى اليهود. (Vital 1975: 49). ذلك أن الذعر امتزج بالتصميم على إيجاد إجابات لكراهية اليهود الفتاكة على هذا النحو الخاص بجذورها المنظمة فى دفاع الحكام الروس عن امتيازاتهم الإقطاعية. لقد كانت تلك فى وقتها أزمة سياسية واضحة تتطلب حلولاً سياسية. ويرى ڤيتال (Vital 1975: 65). بدء تكوين الحركة الصهيونية وأصولها فى هذه الفترة. والواقع أن بقية كتاباته مكرسة لبيان كيف أن الحركة الصهيونية تطورت آنذاك.

ومع هذا، فإن حمى الهجرة، بحثًا عن أرض يمكن أن يتحقق فيها خلاص اليهود فى النهاية، لم تكن موجهة بالتأكيد صوب فلسطين، و كان ڤيتال هو أول من اعترف بهذا. وبدلاً من ذلك كانت أمريكا «التى اتخذت خاصية رمزية، توحى برحيل جديد، وحياة جديدة، وآفاق غير محدودة لم تفقدها على مدى سبعين سنة» (Vital 1975: 61-2). وتتحدث إحصاءات الهجرة عن نفسها. ففى عام ١٨٨٠م، كان هناك أقل من ربع مليون يهودى فى أمريكا. وبعد ذلك بخمسين سنة وصل العدد إلى خمسة ملايين تقريبًا، نتيجة الهجرة من أوروبا الشرقية مع النمو الطبيعى للسكان (Eban 1984: 260).

ولكن بطريقة ما حدث تطور أكثر أهمية بعد المذابح. ذلك أن معظم اليهود لم يهاجروا، أو لم يتمكنوا من الهجرة، واكتشف كثير منهم الآمال المتجددة لتحريرهم فى الأرض التى ولدوا عليها فى الحركة الثورية الصاعدة التى بدأت تكتسح الإمبراطورية الروسية طولاً وعرضًا. **وظهر الاشتراكيون، ولا سيما، العصبة الاشتراكية اليهودية، على سطح المشهد فى أوروبا الشرقية. وإذ غطت هذه الجماعة اليهودية الاشتراكية على الصهاينة «فى جاذبيتها الجماهيرية حتى سنة ١٩٠٥م على الأقل» كما يقول مندلسون** (Mendelsohn 1970: 6)، فإنها التزمت بحصة يهودية فى أراضى الاستيطان. وكانت خصمًا عنيفًا لا يهادن لمشروعات الهجرة الصهيونية إلى فلسطين. ومن المحزن أن

كتاب ڤيتال الذى يصل إلى حوالى أربعمائة صفحة عن أصول الحركة الصهيونية لا يخصص سوى صفحتين لهذه الجماعة .

تحرير الذات

لقد غيرت سنة ١٨٨١م الطريقة التى كان اليهود آنذاك يرون بها التحرير . ففى الماضى ، كان الاعتماد على الآخرين ـ السلطة الحكومية وزعماء اليهود القائمين ـ يُرى باعتباره الآلية المناسبة لحماية المصالح اليهودية . وقد غيرت سنة ١٨٨١م هذا كله . فقد صار اليهود العاديون آنذاك معنيين بشكل مباشر ، ونشطاء ، فيما يتعلق بمصالحهم :

«كان لا بد من النضال لكى تصبح الممارسات السياسية اليهودية مستقلة ذاتيًا . وكان أكثر الشعارات تأثيرًا قد برز من غمار الأزمة ، والذى روج له وأعطاه شهرته پنسكر هو : **تحرير الذات** . إذ لم يعد الهدف هو التوافق مع البيئة وإنما خلق بيئة جديدة تمامًا . . . «ومفهوم التنظيم الجماهيرى . . . هو الذى ساد . وسياسات «الأحزاب» القومية من ناحية ، والاشتراكية من ناحية أخرى ، برزت باعتبارها وجهًا ثابتًا من الحياة اليهودية ـ الروسية» . (Frankel 1981: 51)(٢) .

وتعود جذور هذه الفكرة إلى انشغال الجماهير وتنظيمهم المطلوب للدفاع عن الجماعات اليهودية المحاصرة ضد مرتكبى المذابح . بيد أنها عكست أيضًا الطريقة التى كانت الحركة الثورية الروسية الأوسع قد بدأت آنذاك تتوغل فى الجماعات اليهودية . وبعيدًا تمامًا عن أن تحرير الذات كان شأنًا يهوديًا خالصًا ، فإن تطوره كان مرتبطًا بعروة وثقى بالتوقعات المتزايدة بتحرير الذات فى المجتمع الأوسع .

كان من يحمل الفكرة الثورية إلى الجماعات اليهودية الفقيرة هو الطالب اليهودى الروسى من أبناء الطبقة الوسطى المندمجة فى المجتمع . وكان هذا تعديلاً واعيًا لمفهوم «السعى إلى الناس» الذى نادى به «النارودنيك ـ Narodniks» .

أحد الطلاب ، وهو الكاتب اليهودى ، الذى عرف فيما بعد باسم «بن عامى» سجَّل التأثير الذى كان لهم على تجمعات المعابد فى أوديسا :

«إن الفكرة المجردة هى وجود أشخاص متعلمين، كانت الجماهير تفتخر بهم، ولكن أيضًا باعتبارهم بعيدين عن متناولهم، وكانوا يفكرون فيهم ـ هذا وحده رفع معنوياتهم من الحضيض، ورفع شعورهم بالكرامة الإنسانية ، ففى كل مكان، فعلا فى كل مكان، كان الشباب يقابلون بالامتنان الشامل وحده ـ والأهم من هذا ـ بالثقة المطلقة والوعد بعمل أى شيء سوف يقترحه الشباب. . . وحتى هذا اليوم أرى أمامى صورة رجل جليل فى حوالى السبعين من عمره. . . وضع يده على رأسى ليباركنى. . . ثم انفجر باكيًا» (Frankel 1981: 54).

ولم يتخاذل هؤلاء الطلاب. فقد زودوا اللجان المشكَّلة حديثا للدفاع عن النفس بالتدريبات والبنادق.

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا لم يكن للمثقفين اليهود جمهور كبير من بين اليهود الفقراء فحسب، وإنما كان هذا الجمهور على استعداد للفعل استجابة للأفكار المطروحة عن التحرير. كذلك أفرز الشباب فى الجماعات الفقيرة زعماء جددًا مستعدين لتحدى الأساليب القديمة. وعلى أية حال، لم تكن المذابح وحدها هى التى حفزت النشاط الجماهيرى. إذ كان لعملية التمدن نفسها أثر درامى على الجماعات اليهودية. حيث غرست روحًا غير متوقعة من التمرد بين الجيل الجديد من العمال اليدويين اليهود فى شرق أوروبا.

كانت هناك سخرية حقيقية هنا. إذ إن الدوائر السياسية فى حركة التحرير اليهودية ربطت جذور معاداة الفلاحين لليهود بدور «الوسيط» الذى كان اليهود يلعبونه فى اقتصاد العصور الوسطى. وهكذا فإن باقل أكسيلورد، وهو زعيم سياسى يهودى سيلعب دورًا رئيسيًا فى الحزب السياسى الثورى الروسى «المينشيفيك ـ Mensheviks»، حدد علاقة بين المذابح المكثفة فى المناطق التى كان يعمل بها عدد غير مناسب من اليهود فى مهن لا إنتاجية. حتى صاحب الحانة الجائع، مثل والده، كان يعتبر مستغلاً للفلاحين، فقد لاحظ أكسيلورد أنه «. . مهما كانت حدة الفقر الذى تعانيه الجماهير اليهودية. . . تبقى الحقيقة التى تؤخذ برمتها. . . أن غير المنتج كان عبئًا على الطبقات الدنيا فى روسيا» (Frankel 1981: 105). وقد كان أحد الحلول هو إقناع «العناصر غير المنتجة» بأن يصيروا عُمالاً يدويين. وقد تحول هذا إلى مثال شيوعى،

والواقع أن بعض المهاجرين اليهود انطلقوا إلى أمريكا لكى يقيموا كميونات زراعية (Frankel 1981: 55) . وكانت أصول استعمار فلسطين بهدف محدد هو إقامة مثل هذه الكميونات «الكيبوتز» ترجع إلى هذه الفترة .

ولكن آلافًا من اليهود صاروا عُمالاً يدويين ، بما فيهم أصحاب الحانات المعدمون فيما سبق ، وحتى هؤلاء المعروفون بكونهم «قوائم الأسعار الماشية» غير المحبوبة عندما وجدوا أنفسهم بلا بضاعة يبيعونها ، وليس بدافع الاختيار الفكرى أو المثالية السياسية وإنما بسبب الضرورة والحاجة وحدها ، قاموا بهذا التحول . فقد كانت تلك هى الطريقة الوحيدة لتجنب الموت جوعًا .

ولم يكن ذلك العمل اليدوى قادرًا على ضمان ما هو أكثر من سد الرمق . إذ كانت فترات التوظيف القصيرة تعقبها فترات بطالة طويلة «يجب أن نعيش ٥٢ أسبوعًا من عائد عمل عشرة أسابيع» هذا ما كان يردده الآلاف (Mendelsohn 1970: 13) . وقد وصف العمال الروس الأحوال فى المدن الجديدة فى بيلا روسيا وليتوانيا عند نهاية القرن التاسع عشر :

«كانت الأغلبية تعيش فى عتمة السراديب أو الأكواخ الحقيرة المتشابهة ذات الحوائط الرطبة والقاعات المبللة ، وكانوا يحشرون سويًا فى جو قاهر مذهل . . عشرة أشخاص يعيشون فى حجرة . . وكان من الرفاهية أن تكون هناك حجرة لأسرة واحد من العمال» . (Mendelson 1970: 13-14) .

هكذا كانت ظروف المناطق الحضرية فى أوروبا الشرقية شنيعة . وفضلاً عن ذلك ، كان الإبداع التكنولوچى بطيئًا بطريقة تبعث على الأسى ، وكانت معظم أماكن العمل صغيرة لا تستخدم أكثر من خمسين شخصًا ، وفى غالب الأحيان لم يكن عددهم يزيد عن حفنة قليلة . وهكذا كانت «صناعة النسيج» تستأجر النساجين من أجل أنوالهم الخشبية العتيقة. ويعملون ما بين ١٦ إلى ١٨ ساعة يوميًا فى أماكن مزدحمة بلا تهوية. وكان اليهود نادرًا ما يستخدمون فى المصانع الآلية التى كانت أحوالها أفضل. كذلك استُخدم اليهود للعمل اليدوى فى النجارة، وصناعة الأقفال، وصناعة الجوارب والملابس الداخلية، والدباغة، ومصانع التبغ والكبريت (التى كانت تستخدم أعداداً كبيرة

من النساء والأطفال حتى سن السادسة)، وفى صناعة ألياف من الشعر، وهى صناعات لم يكن من شأنها أن تصير جوهر الاقتصاد الجديد والمجتمع الجديد فى الإمبراطورية الروسية. ومع هذا، فإن هؤلاء العمال اليهود كان عليهم أن يقوموا بمحاولة بارزة للتحرر الاقتصادى والاجتماعى والسياسى. وقد برهنوا على استعدادهم للقيام بعمل جماعى ضد هذه الظروف الشنيعة، وساعدوا على نشر فكرة الأضراب الجماعى باعتباره سلاحًا سياسيًا للتحرير، خارج نطاق صفوفهم(٣).

حركة إضراب العمال اليهود

لماذا لم يكن اليهود يُستخدمون فى المصانع الميكنة؟ لقد لعب العداء لليهود دورًا فى هذا بطبيعة الحال، ولكن السبب الرئيسى مدهش تمامًا:

«كان معظم أصحاب العمل (من اليهود وغير اليهود) يفضلون المسيحيين عن العمال اليهود؛ لأن المسيحيين كانوا محل ثقة أكثر. وحركة إضراب اليهود فى أوروبا الشرقية.. زرعت الرعب فى قلوب أرباب العمل. ففى سمورجون شرح صاحب مصنع يهودى الأمر: «اليهود عمال جيدون ولكنهم قادرون على تنظيم حركات التمرد.. ضد صاحب العمل، وضد النظام، وضد القيصر نفسه..» وقد اتفق المراقبون الاشتراكيون وغير الاشتراكيين معًا على أن أرباب العمل فى بياليستوك يخشون الإمكانية الثورية لدى العمال اليهود مما قادهم إلى تفضيل الاستقرار النسبى للقوة العاملة غير اليهودية» (Mendelsohn 11970: 22).

وكانت حركة إضراب العمال اليهود عبر شرق أوروبا، ولا سيما بيلا روسيا وليتوانيا، جديرة تمامًا بالشهرة التى تحققت لها:

«الحرفيون.. شكلوا الكوادر الأولى لتحريض العمال. وبالتدريج عندما تكاثرت الحركة وانتشرت، انجذب العمال الأكثر تخلفًا من مصانع السجائر والكبريت الكبيرة داخل موجة الاحتجاج (هنا المستوى الثقافى متدنى للغاية؛ إذ كانت أغلبية العاملين فى مصنع جرودنو الضخم من الأميين). وفى ڤيلنا حدث أول إضراب من عمال المصانع سنة ١٨٩٥م، بعد ثلاث سنوات من بداية هجوم الحرفيين. وقد كان الاضطراب الذى قام به عدة مئات من العمال فى مصنع السجائر أكبر مؤسسة فى

ڤيلنا، علامة على مرحلة جديدة فى تطور حركة عمال المدينة. لقد كانت فى الحقيقة المرة الأولى التى يتم فيها تحدى رجل صناعة رئيسى، وليس مالك حانوت صغير. . وفى بياليستوك تم تنظيم الفتيات العاملات فى مصنع السجائر بواسطة محرض من ڤيلنا، وهو رجل محنك من حركة مينسك.

انتشر الإضراب من الحوانيت إلى المصانع، ومن المراكز الكبيرة إلى المدن الصغيرة. وبصفة عامة كانت حركة العمال فى الجماعات الصغيرة تندلع شرارتها بوصول العمال من المدن المجاورة. . . ولأنهم كانوا أصحاب خبرة فى أساليب التحريض. . وفى ديسنا المدينة التى تقع فى إقليم ڤيلنا، طرحت فكرة صراع الطبقات من قبل عدد من عمال الغزل. وكانت حركة العمال فى إهومين قد اندلعت بتحريض من محرض جاء من مينسك مجهزاً بحقيبة مليئة بالكتابات غير القانونية، وفى دروهيكزين اندلعت الاضرابات الأولى بعد أن عقد عدد من اتحاد پنسك اجتماعًا فى المعبد اليهودى المحلى» (Mendelsohn 1970: 82-4).

لقد كان المحرضون على حركات الإضراب وقادتها جميعًا أعضاءً فى البوند، وهى العصبة التى امتدت بسرعة خلال تلك الفترة بحيث صارت حزبًا سياسيًا ثوريًا. والزعيم الصهيونى، حاييم وايزمان، الذى كتب سنة ١٩٠٣م، سلم بقوتها قائلاً: «إن أقسى نضال خضناه فى كل مكان ضد البوند. . . هذه الحركة تستهلك الكثير من الطاقة والبطولة. . . فالأولاد فى حال من التمرد الصريح ضد آبائهم» (Finkel 1984: 141). وقد كسبت حركة الإضراب للبوند مكانًا خاصًا، بيد أنه مثير للجدل، إلى جانب الأحزاب الثورية الرئيسية التى كانت تتحدى الإمبراطورية الروسية، الثوريون الاشتراكيون والمنشڤيك والبلشڤيك، وكذلك الأحزاب القومية. وقد أنتجت حركة البوند عددًا كبيرًا من الكوادر الاشتراكية من أبناء الطبقة العاملة، الذين حمل الكثير منهم أفكارهم معهم إلى خارج البلاد عندما هاجروا، وكان لهم فيما بعد إسهامات مؤثرة فى انتشار الحركات الاشتراكية فى جميع أنحاء العالم الصناعى. وكانت حركة البوند تعتبر التعليم الاشتراكى مهمًا بقدر التحريض على الإضرابات ذات المراحل لتحسين الأجور وظروف العمل. وقد سُئل عمال الغزل بمدينة ميزريخ، وهم إحدى أكثر المجموعات تشددًا، من جانب صاحب العمل القلق عما سيفعلونه فى وقت

«فراغهم» بعد أن أجبروه على تخفيض ساعات العمل (إلى اثنتى عشرة ساعة يوميًا. وقد أطلعوه على الكتابات الاشتراكية التى أصدرتها حركة البوند وأجابوا «هذه توراتنا ـ سوف ندرسها فى وقت فراغنا»(Mendelsohn 1970: 86).

هذه الملاحظة ليست على سبيل المزاح والسخرية. ولم يكن أصحاب العمل اليهود وحدهم الذين تكدروا منها. إذ كان الحاخامات قلقين بشكل متزايد بشأن المانفيستو الشيوعى الذى حل محل التوراة، وفى بعض الأحيان فى الأماكن المستبعدة تمامًا:

«لقد تركت مئات عديدة من الشباب المدارس الدينية اليهودية، اليشيفا، وانغمسوا فى العالم العلمانى البهيج. وقد انطوت هذه العملية على الابتعاد تمامًا عن الكثير من القيم الموروثة من عالم آبائهم، مثل تفضيل حياة الدراسة الدينية على غيرها... كانت حدة الشقاق والانفصال عن الماضى تتجلى بأكبر قدر من الحيوية عندما كان... طلاب اليشيفا.. يتحولون عن وعى من مقعد الدراسة إلى طاولة العمل، وهناك يتعرضون لرسالة التحرير الاجتماعى التى تروجها حركة البوند بكل عيونهم وقلوبهم وعقولهم» (Medem 1979: 217 n 1).

هذه الفقرة من مذكرات ڤلاديمير ميديم، وكان أحد زعماء حركة بوند فى شرق أوروپا. ويشرح الپروفيسور سام بورتنوى فى تقديمه المذكرات نفسية العامل اليهودى الجديد «الذى خاض الصراع ضد نفسه وكسبها ـ صراع ضد سلبياته ومخاوفه»، وظهر آنذاك ثوريًا على استعداد لأن «يتنصل من نظام الخوف المؤسس» الذى كان يسود زعامة الجماعات اليهودية القديمة. (Medem 1979: 16).

وقد ترك لنا أحد أعضاء البوند، وهو آبى كاهان صورة حية عن الشاب ميديم نفسه، الذى كان من الثوريين الاشتراكيين اليهود، طالبًا أرستقراطيًا روسيًا شجاعًا من عائلة كانت قد اعتنقت المسيحية، وكان على استعداد دائم لمواجهة الموت بترحيله إلى سيبيريا، وتعلم اللغة اليديشية «بشكل جميل»، وهى لغة الفقراء اليهود، والتى كان اليهود الروس المندمجون يستبعدونها عادة على أنها «رطانة» غير مفهومة. (Medem 1979: 33 - 36).

ونلحق بميديم فى «البيرزها ـ Birzha»، و«هو الشارع الذى كان فى كل مدينة

محدداً لاجتماع المحرضين مع الجموع». وكانت هذه الجموع المزدحمة توفر غطاء يحمى من مراقبة البوليس على حين تؤسس الروابط «بالاتصال الجديد بورشة أو أخرى». وكانت هذه الشوارع «البيرزهات» تغص بالمئات من الأشخاص كل ليلة، وكلهم من نمط العمال الشباب.. والوجوه المألوفة للناشطين.. والناس الجدد المتلذذين بالنشوة الناجمة عن المرحلة الأولى فى تلقى التعاليم المدهشة الجديدة» (Medem 1979: 159).

ويبين ميديم أيضًا الطريقة التى كانت الحركة الثورية تبدأ بها فى قلب نزعة معاداة السامية رأسًا على عقب. إذ كان قد درس بجامعة مينسك. وهناك إذا ما صدمهم تدخل أحد المعادين للسامية المعزولين، أمسك الطلبة الثوريون بهذا الشخص، وحاكموه على مدى يومين، أمام اجتماع شامل للجامعة بأسرها» (Medem 1979:108)

ويصف حادثا لافتًا للنظر فى مدينة ريجا سنة ١٩٠٥م عندما اندلعت الثورة فى النهاية. وقد اعتمد مصيرها على عمال السكة الحديد هناك، ولم يكونوا من اليهود بالتأكيد؛ لأن مشاركتهم فى الإضراب العام كانت حيوية تمامًا من الوجهة الإستراتيجية. وكانوا يصيحون بلفظ Zhid (وهو سب خاص باليهود) ضد الخطباء حتى أولئك الذين لم يكونوا يهودًا من بينهم.. بيد أن «مكسيم» الخطيب الممثل للبوند «وهو شاحب رفيع هزيل، له ذقن قاتمة اللون.. ليس من البروليتاريا المكدودة من غير اليهود» استطاع أن يكسبهم إلى جانبه. (Medem 1979: 430 n.6).

وبدا أن توقعات البوند على وشك أن تتحقق فى ثورة ١٩٠٥م. وباختصار ظهر وكأن المثل العليا للثورة الفرنسية سوف تحملها حركة عمالية اشتراكية متعددة الأعراق ومتعايشة دينيًا، بحيث تحقق التحرير للجميع، على حين كانت إمبراطورية القيصر تترنح، حتى وإن كان الثمن تضحيات جسيمة:

«فى الخامس من شهر يونيو وفى مدينة لودز (ثانية المدن الكبرى فى پولندا) تم إطلاق النار على مظاهرة، شارك فيها مؤيدو البوند والأحزاب الاشتراكية البولندية، وبعدها بيومين سار فى جنازة القتلى خمسون ألف شخص. وتمت الدعوة إلى إضراب عام... وفى تلك الليلة أقيمت المتاريس والحواجز فى الحى اليهودى وفى غيره من المناطق فى المدينة... وجرت معارك مريرة مع الخيالة طوال الليل وفى اليوم التالى.

ولقى المئات حتفهم، وكانت غالبيتهم من اليهود. وقد كتب مراسل الصحيفة الثورية الروسية، «إسكرا»:

«إننى لا أملك سوى التأكيد على الاحترام العظيم الذى كان. . . لودز المسيحى يكنه لليهود. إذ إن المسلك البطولى لليهود فى المصادمات مع البوليس والجيش قد أثار الإعجاب فى كل مكان. . . وثمة أساطير تنتشر عن معركة الأمس بين اليهود والقوزاق ـ وهى أساطير تصف اليهود بأنهم من نوع شمشون» (Frankel 1981: 147).

وقد لاحظت «ڤوسخود» الجريدة اليهودية ـ التى كانت تتسم عادة بالحذر والاعتدال ـ الاتجاه العام فى كل مكان بقولها: «لم يحدث من قبل أن كان السكان المسيحيون فى شرق أوروپا على هذا القدر من التضامن مع اليهود» (Frankel 1981: 147).

لقد آتت استعدادات السنوات الطوال التى قامت بها البوند واليهود الذين تصرفوا باعتبارهم أعضاء من الأحزاب الاشتراكية الروسية والپولندية ثمارها. وكانت الثورة قد اندلعت:

«ولقد رأت فيها قطاعات كبيرة من اليهود جزءًا من النظام الطبيعى للأشياء: الانتقام من خمسة وعشرين عامًا من الإهانة. وتحويل اليهود إلى ضحايا. والدخول المستحق منذ زمن طويل لروسيا فى أوروپا» (Frankel 1981: 141).

هزيمة الثورة: النضال من أجل روح العمال اليهود

على أية حال، فشلت الثورة. واندلعت موجة جديدة من المذابح بدأت فى أكتوبر ١٩٠٥م لتضع الحركة جماهيريًا فى موقف الدفاع عن نفسها. وقد عبر ليون تروتسكى(٤)، زعيم السوڤييت، أى المجلس الثورى للعمال فى بطرسبرج، الذى كان يسيطر عليه عمال المعادن المتشددون عن أهميتها بوضوح بقوله:

«لقد تحولت مائة مدينة وبلدة روسية إلى جحيم. كان ثمة حجاب من الدخان يحجب الشمس. والتهمت النيران شوارع بكاملها بما فيها من المنازل والسكان. لقد كان ذلك انتقام النظام القديم لما ناله من إذلال». (Trotsky 1972: 131).

وغرق البوند فى خضم الأزمة. فعلى يمينها كان زعماء الصهيونية من أمثال

فلاديمير چابوتنسكى يؤذونها بسبب انشغالها الشديد بالعمال اليهود، ورفض أخذ مسألة الحاجة لتوحيد كل الطبقات الاجتماعية داخل الجماعة اليهودية مأخذ الجد، وبسبب رفض رؤية «الأمة اليهودية» (Frankel 1981: 253). وعلى اليسار، جاء الطلب من العمال اليهود كافة لتوحيد البوند فى حزب واحد مع البولشفيك والمينشفيك. (Frankel 1981: 256)[٥].

كانت هذه مجادلة قديمة. وكانت من أكبر أسباب غضب لينين، لأنها كانت قد انشقت عن حزب ثورى موحد سنة ١٩٠٣م، على أساس أن البوند وحدها هى التى تستطيع أن تمثل العمال اليهود ولا يجب أن يمثلهم غيرها. لقد طلبت البوند لليهود الاستقلال الذاتى الثقافى الوطنى داخل سياق الثورة. ولكن ماذا كان هذا يعنى فى الحقيقة؟ لقد كان الاعتراف بلغة اليديش أمرًا مسلمًا به بالفعل من جانب البلاشفة (وبقدر أكبر من تسليم الصهاينة بذلك). ولكن ماذا عن الاعتراف بوطن يهودى؟ كان هذا يجعل البوند «تصيب الصهاينة بالدوار»، على حد تعبير الثورى چيورچى بليخانوف (Frankel 1981: 225). كان رأى لينين أن العمال اليهود ربما كانوا على قدر من التقدم يمكنهم من التغلب على حدود الوعى القومى. وأشار إلى نيويورك، حيث كان المهاجرون من العمال اليهود منشغلين إلى درجة كبيرة فى بناء اتحادات مهنية متعددة الأعراق وفى بناء الحركة الاشتراكية الأممية (Lenin 1972: 20, 27-33).

وفى سنة ١٩٠٣م، أدت هذه المجادلة إلى انقسام جاد فى مجلس البوند. . . فقد كانت القيادة فى وضع حرج تمامًا لدرجة أنها حذفت المناقشة من المضبطة (Medem 1979: 281).

وكان هناك عاملاً آخر لاحظه «الماركسى الصهيونى» بن بوروشوف. إذ لم يكن العمال اليهود قادرين على أن يقاتلوا وحدهم إلى الأبد. فمن ناحية، وفى ضوء عدد الإضرابات، أظهرت حركة الإضراب اليهودية فى شرق أوروبا كثافة أعظم من أى مكان آخر فى العالم. ومن ناحية أخرى، كانت إحصاءات الإضرابات مضللة إلى درجة كبيرة. فقد وقع معظمها فى أماكن عمل صغيرة، لدرجة أن إضراب ثلاثة حاكة فى مينسك كان يُعد مساويًا لإضراب قام به ثلاثة آلاف من عمال الصلب فى بيتسبرج

(Mendelsohn 1970: 85). وقد خلص بوروشوف إلى نتيجة مؤداها الهجرة إلى فلسطين. وكان على لينين أن يدمج حركة العمال اليهود فى الحركة العمالية الأوسع وأن يجعل الحرب من أجل حقوق المساواة اليهودية، والعداءلكل أشكال معاداة السامية، جزءاً مندمجاً من البرنامج الثورى.

ومن المثير أنه حتى بن جوريون كان مجبراً على الاعتراف بأن لينين والبلاشفة لم يكونوا قط يساومون فى عزمهم على تدمير معاداة السامية. لقد كانت إدارة لينين وحدها هى القادرة على جمع القوة اللازمة للدفاع عن اليهود ضد أعدائهم، كما ذكر بن جوريون بعد ثورة ١٩١٧ (Teveth 1987: 232).

بعد سنة ١٩٠٥م دارت المعركة بين البوند والصهاينة، وعلى حد تعبير أحد الكُتاب: «من أجل كسب قلب كل شاب وفتاة يهودية وعقلها فى كل مدينة وفى كل قرية يهودية (شتيتل)» (Frankel 1981: 156).

وكان معيار قياس تأثير السياسات الماركسية، ومركزية العامل اليهودى كمقاتل ثورى، هو الطريقة التى كانت بها الحركة الصهيونية نفسها مجبرة على أن تتواءم معها. وكان بن جوريون شاهداً فريداً.

عندما اندلعت ثورة ١٩٠٥م، كان بن جوريون يعيش فى وارسو على بعد ستين كيلومترا من مدينته بلونسك. ووفقًا لشابتاى تيڤيث، كاتب سيرته المتعاطف معه، كان بن جوريون يعتبر أولئك اليهود، الذين رآهم فى طليعتها، يضيعون حياتهم فى قضية لا أمل منها، إذ كان يرى أن «الخلاص اليهودى لن يوجد سوى فى فلسطين. . . وربما تحرر الثورة روسيا وپولندا ولكنها لن تحرر اليهود» (Teveth 1978: 25-6).

بيد أن بن جوريون فهم تأثير الأفكار الماركسية على الخيال الراديكالى للشباب اليهودى. ففى وارسو صادف الحزب «الصهيونى ـ الماركسى»، وهو حزب «پوال زيون» الذى حاول تعديل الأفكار الماركسية لتلائم القضية الصهيونية. وشعر بن جوريون أنه مضطر إلى الانضمام إلى هذا الحزب حتى على الرغم من أنه لا يوافق على أفكاره (Teveth 1987: 30). ولم يكن بوسع الصهاينة أن ينافسوا الأحزاب الثورية إلا باللعب حسب قواعد اللعبة لديهم، وكان حزب پوال صهيون هو أداتهم المختارة. ومرّ

بن جوريون بتجربة شخصية عن معنى هذا. فبينما كان بوارسو، كانت البوند قد نظمت فرقًا دفاعية تحسبًا لهجوم ومذابح متوقعة فى پلونسك وعلم بها بن جوريون وتأثر بها للغاية. وعاد بن جوريون إلى موطنه وقد عقد العزم على هزيمة البوند. ووصف تيڤيث لما حدث بعد ذلك كان يمكن تطبيقه على أية قرية يهودية، أو بلدة، أو مدينة بشرق أوروپا.

وتحدى بن جوريون وحزب «پوال زيون» البوند فى مناقشة عامة فى المعبد اليهودى الكبير بالمدينة. وأرسلت البوند خطيبًا بارزًا. وأغلقت الحوانيت بهذه المناسبة «وبدافع الاحترام للمعبد وضعوا مسدساتهم على الطاولات» (Teveth 1987: 32).

ويؤكد لنا تيڤيث أن بن جوريون كسب بسهولة المناقشة، ولكن يبدو أن صحافة البوند اعتبرت هذا نوعًا من النصر فادح الثمن عندما قالوا إنه هدد بتوجيه بنادقه على أعضاء البوند. ومن المثير أيضًا أن بن جوريون شعر أنه مرغم على تدعيم قاعدته فى البلدة بتنظيم النقابات. (Teveth 1987: 33).

الانعكاس المتصدع: تأثير ١٩٠٥م على الحركة الصهيونية فى فلسطين

تأثر جيل بن جوريون من الشباب الصهيونى فى شرق أوروپا بتجربة ثورة ١٩٠٥م إلى درجة عميقة. إذ إنها وفرت كادرًا خاصًا للغاية ليقوم ببعثة الحركة الصهيونية إلى فلسطين. بل إن هناك من يجادل بأنه لم يكن ممكنا أن تقوم دولة يهودية:

«بدون تدخلهم فى اليشوف. . والجوهر الصلب داخل الشباب المهاجر، الذين ربما لم يزد عددهم على مائتين أو ثلاثمائة، كانوا مشحونين بدرجة استثنائية من الطاقة السياسية ـ وهى طاقة تستمد قوتها من التجربة الثورية الروسية، من ناحية، ومن مذهب الخلاص اليهودى من ناحية أخرى. . .

كانوا معادين للكهنة، وغالبًا من الملحدين، بيد أن رؤيتهم للعالم بقيت فى غالب الأحوال مسيحانية ـ شكلتها «الهدير» (أى تعليم الشباب واليشيڤا (أى المدارس الدينية، وبالتربية الحيدية أو بارتباطهم العاطفى الدقيق بهرتزل، باعتباره البشير بالخلاص الذى طال انتظاره، فى نهاية الزمان. . .

أما أولئك الذين كان ارتباطهم بالصهيونية من بين الشباب المهاجر يضرب بجذوره في المفاهيم الاجتماعية - الثورية وحدها دون الخليط الإضافي بالأسطورة القومية، فإنهم نادراً ما كانوا يمكثون في البلاد قدر بن جوريون الباقين بنسبة ١٠٪ فقط» (Frankel 1981: 366-8).

وجرت محاولة لخلق إيديولوچية اشتراكية متماسكة من هذه الطريقة الغريبة التي أعطت بها الثورة الروسية الطاقة لما يمكن أن نسميه الحنين الديني لدى أقلية من الشباب اليهودي، لتكون أساسًا لقومية يهودية في فلسطين. وعلى الرغم من أن العمال اليهود اعتبروا من قبل البوند بمثابة العنصر الاجتماعي لعملية التحول في الحياة القومية اليهودية، فإن هذه الحجة أخذت بمعنى مختلفًا تمام الاختلاف عندما وضعت على أرض الحقائق في العالم العربي. إذ إن الأفكار الاشتراكية كانت تستسلم باستمرار للقومية اليهودية الكامنة في بؤرة التركيز الإيديولوچي على العمال اليهود[*].

وفي مؤتمر حزب پاول زيون (الماركسي / الصهيوني) الذي عقد في يافا سنة ١٩٠٦م، عارض بن جوريون بشدة الأقلية الماركسية الأكثر تشدداً، والذين اعتقدوا بسذاجة أن على الاشتراكيين اليهود أن يساندوا ويساعدوا العمال العرب في تنظيم اتحادات مهنية، بدلاً من النضال من أجل العمال اليهود وحدهم.

وكان لا بد لهذه الحجة من أن توضع بسرعة موضع الامتحان القاسي أثناء الإضراب احتجاجًا على الأجور المتدنية من جانب عمال مزارع البرتقال العرب من قرية بتاخ - تيقا. إذ حاولت نفس الأقلية الماركسية تنظيم حركة تضامن مع أولئك الذين اعتقدوا أنهم إخوانهم العرب في النضال. «وفي الحال قامت السلطات العثمانية والمستوطنون اليهود وزعماء العمال الصهاينة بإغلاق الصفوف أمام عمال مزارع البرتقال - وتم القبض على المضربين وتعذيبهم ولكنهم رفضوا أن يخونوا رفاقهم اليهود» (Weinstock 1979: 87)[٦].

ومن وجهة نظر الصهيونية، لم تكن المشكلة مع العمال العرب في بتاخ - تيقا -

---

(*) فهل كان الثوار اليهود يقودون الحركة الاشتراكية والشيوعية، بينما يعملون فعليًا لصالح القومية اليهودية والأرض الموعودة والشعب المختار؟ - المترجم.

أنهم قاموا بالإضراب فحسب، وإنما كانت المشكلة أنهم يشغلون وظائف في «الاقتصاد اليهودي».وظهر شعار جديد مشئوم. لقد ظهر ليكون شعاراً اشتراكيًا ولكن في الممارسة كان هو النقيض تمامًا للاشتراكية من حيث إنه كشف عن المشاعر المعادية للعرب على نحو مهلك، وهي المشاعر التي كانت وصمة على حركة اتحادات العمال الصهيونية، الهيستدروت. كان الشعار يقول «غزو العمل» (Weistock 1979: 133). وهو ما يعني «غزو اليهود لوظائف العرب».

كان الهيستدروت على الدوام أكثر من مجرد اتحاد عمال. ففي الأيام الباكرة تحت حكم الانتداب البريطاني كان هو أكبر مستخدم بعد الحكومة:

«كانت هذه السياسة تميل إلى تجهيز الطبقة العاملة اليهودية النامية في فلسطين ببنية تحتية اقتصادية لا يمكن الاستغناء عنها؛ إذ كانت تعاونياتها المنتجة توفر الوظائف للمهاجرين اليهود، كما أن شركات البيع لديه تضمن تسويق المنتجات الصهيونية. . . كان المعادل لشعار اتحاد العمال «العمالة اليهودية» هو شعار «الإنتاج اليهودي».

«كان الأپارتهيد الاقتصادي الصهيوني مكونا أصيلاً في الهيستدروت... وكان على كل عضو أن يدفع ضريبتين إجباريتين:

(١) للعمال اليهود ــ ميزانيات لتنظيم فرق الإضراب من العمال ضد استخدام العمال العرب، إلخ.

(٢) للإنتاج اليهودي لتنظيم مقاطعة الإنتاج العربي[٧]... (Weistock 1979: 184).

وهكذا، فإن الأفكار التي كانت مرتبطة تقليديًا باتحاد العمال والنضال الاشتراكي، مثل تنظيم الإضرابات والمقاطعة، انقلبت رأسًا على عقب واتخذت معاني على النقيض تمامًا من مقصدها: وبعبارة أخرى، تدمير التضامن بين العرب واليهود بدلاً من ترقيته. هذه «المبادئ» التي تبنتها حركة اتحاد العمال اليهودية في فلسطين، كانت بمثابة نذير بأسس الدولة الإسرائيلية نفسها: أي الفصل المؤسس بين العربي واليهودي، وتفضيل اليهودي على حساب العربي.

هرتزل: مسيح رد الفعل القادم من الغرب

أوضحت الحقائق العربية في فلسطين النزعة الانعزالية المتضمنة في المشروع

الصهيونى وزادت من صلابتها. والحقيقة، مع هذا، فإن المنظرين الأصليين للصهيونية مثل ملهمها الرئيسى تيودور هرتزل، كانوا بالفعل قد حولوا الشعور بالعزلة اليهودية الذى فرضته معاداة السامية الأوروبية إلى فضيلة ـ هذا البعد فى الصهيونية هو الذى يعطى إيديولوچيها هذه السمة العميقة لرد الفعل، وذلك قبل مواجهتها الحتمية مع فلسطين العربية بزمن طويل.

وثمة صورة حديثة تتعاطف مع هرتزل، كتبها بقلمه الكاتب الصهيونى روبرت ويستريتش، تذكرنا بأنه كان فى باريس سنة ١٨٩٢م أن بدأ هرتزل يرى معاداة السامية كظاهرة عالمية. وزعم أن الناس «فى فرنسا الجمهورية، الحديثة، المتحضرة، وبعد مائة سنة من إعلان حقوق الإنسان» قد أبطلوا بطريقة عفوية مرسوم الثورة العظمى (Wistrich and Ohana 1995: 17-18). كانت تلك استجابته لمحاكمة ألفريد دريفوس، ضابط الجيش اليهودى الفرنسى، الذى أتهم بالخيانة. وقد صارت المحاكمة قضية مهمة لكل من اليمين واليسار، وقد اشتهرت على يد الروائى إميل زولا، وصيحة الحشد التى أطلقها «إنى أتهم J'Accuse»، حيث عبأ اليسار لصالح دريفوس. ولكن هرتزل لم يستطع أن يرى فرنسا سوى من خلال عيون اليمين القومى، حيث تكمن ميوله السياسية (Shapira 1992: 12) واستسلم لرؤية اليمين بأن نزعة معاداة السامية سوف تستحوذ على غالبية الشعب فى فرنسا. وكان عليه أن يقول إن المحاكمة هى التى حولته إلى صهيونى.

ويتجاهل ويستريتش، وهو يعاود حكاية هذه القصة، الطريقة التى كانت بها محاكمة دريفوس أيضًا خط تقسيم حدود لليسار. لقد كانت بمثابة صيحة استيقاظ، على حد تعبير الزعيم الاشتراكى الفرنسى چان جوريه «لاتخاذ مواقف فى الصراعات الدائرة بين مختلف الفصائل البورجوازية.. لإنقاذ الحرية السياسية، كما حدث فى قضية دريفوس، للدفاع عن الإنسانية» (Jacob 1992: 15). وكما فى روسيا، كان على الحركة الاشتراكية النامية آنذاك أن تتقدم حاملة المثل المكتوبة على راية الثورة الفرنسية. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا سوف يرى اليسار معاداة السامية «أكثر خصومه خطورة»[٨]. (Jacob 1992: 12). وقد ألزم اليسار نفسه بتحدى الإنحيازات فى صفوف مؤيديه المتزايدين من الطبقة العاملة. ومن المثير حقًا، أن دريفوس نفسه وقف مع الاشتراكيين، ورفض الصهيونية باعتبارها «فوضوية» (Burns 1992: 302).

حينذاك طور هرتزل موقفًا صادمًا صريحًا من معاداة السامية. وكتب أنه كان مستعدًا «للفهم والعفو» تجاهها. (Wistrich and Ohana 1995: 11). ومسامحة معاداة السامية أتاحت له أن يطور مبادرة ديبلوماسية عكسية فى روسيا، صدمت الكثيرين حتى داخل المعسكر الصهيونى وهزتهم، فبعد عدة أشهر من وقوع واحدة من أكبر المذابح دموية على الإطلاق فى كيشينيف سنة ١٩٠٣م عندما قتل حوالى خمسين يهوديًا، عقد هرتزل اجتماعًا مع سياتسلاف قنسطنطوڤيتش پليڤى، الوزير القيصرى الذى يعد مسئولاً عن المذابح المائة السوداء. وبعيدًا عن أن يكونوا فى موقف الدفاع، أخبر پليڤى ورفاقه الوزراء هرتزل أن المشكلة كانت هى ثورة اليهود التى تشكل تهديدًا ماثلاً. وزعم پليڤى أن الشباب اليهودى كانوا يكونون ما يصل إلى نصف عضوية الأحزاب الثورية.

واستمع هرتزل بروح من التعاطف. وكتب تقريرًا إلى المؤتمر الصهيونى السادس تلك السنة بأن مؤيديه فى روسيا ممن يدعمون الثورة يجب أن يبدأوا التصرف «بهدوء وبطريقة قانونية». وقد اعتبر الشباب الاشتراكيون فى المؤتمر أن ملاحظاته خيانة حقيقية، وأصدروا كتيبًا متمردًا عنوانه «لا بهدوء ولا بطريقة قانونية» (:Frankel 1981 279). وقد زادت البوند من قوة الاتهام بالخيانة. لقد كانت «مساهمة حقيقية . . . تساعد النظام على التخلص من اليهود الذين لا يريدهم» (Medem 1979: XV).

ومع هذا، فإنه لا ينبغى لنا أن نقلل من قيمة جاذبية هرتزل فى شرق أوروپا. فبعد زيارته لپليڤى، استطاع أن يجمع الجموع الغفيرة، حتى فى معقل البوند فى ڤيلنا (Frankel 1981: 179). إن جاذبيته المسيحانية - إذ كان يحمل لقب ملك اليهود فى شرق أوروپا - قدمت وهمًا حذقًا مريحًا وباقيا. وكان محبًا للجمال، أوروپيًا شهيرًا - بوصفه كاتبًا مسرحيًا وصحفيًا كان حبيب البورجوازية اليهودية فى ڤيينا - يلعب على موضوعات وعواطف يهودية قديمة، لشعب يناضل الآن ضد الأحوال الكريهة والخانقة. كان ما يقدمه هو حلم أشبه بتذكرة العودة إلى المستقبل. كان يقول: «انظروا إلىّ إننى يهودى شق طريقه فى العالم الحديث، وفى وسعكم أن تفعلوا هذا أيضًا إذا اتبعتمونى إلى فلسطين، لنبنى وطنًا حديثًا فى وطننا القديم». ونسى أن يخبرهم عن الشعب العربى الذى كان يعيش هناك بالفعل. «كانت لدى هرتزل موهبة فريدة لنسج

وهم القوة، لخلق حالة فرض الإرادة الوطنية على شعب مشتت؛ ويعانى من الإحباط» (Wistrich and Ohana 1995: 16).

كان هرتزل على استعداد للمساعدة فى حماية الوضع القيصرى كما هو؛ لأنه أراد من القيصر أن يمارس الضغط على السلطان العثمانى لكى يسمح لمزيد من اليهود الروس بدخول فلسطين. وكان قد أطلق دعوة هجومية وديماجوجية شديدة للسلطان حيث كان قد عرض التنظيم اليهودى لماليات السلطان فى مقابل السماح لليهود بدخول فلسطين، مما ساعد وشجع تلك الأصوات التى كانت تبالغ بالفعل فى مزاعمها بشأن القوة المالية اليهودية. بيد أن السلطان رفض فى أدب.

كانت دعوة هرتزل كاشفة فى زاوية أخرى. إذ كانت تضع الخاتم على الاستراتيچية الصهيونية حتى نهاية القرن العشرين، وهو ما ستتم دراسته بالتفصيل فى بقية الكتاب، باعتبارها أداة سيطرة القوة العظمى على العالم العربى **«كان لنا أن نشكل جزءاً من استحكامات أوروبا ضد آسيا، لنكون طليعة للحضارة ضد البربرية»** (Vital 1975: 266).

هل هو شعب بلا أرض؟

بعد ذلك بمائة سنة نستطيع أن نضع تقويمًا كاملاً لهذه الخرافة، التى ربما كانت هى الخرافة الوحيدة التى لها صدى فى الحقيقة. وهذا بسبب أن كل الطرق الثلاثة الممكنة لتحرير اليهود فى شرق أوروبا فى بداية القرن العشرين ـ الهجرة إلى أمريكا، والهجرة إلى فلسطين، أو التحرر من خلال النضال للإطاحة بإمبراطورية القياصرة ـ كان عليها أن تواجه أقسى الاختبارات. وعلى الرغم من أن التطبيق الناجح للبرنامج البلشفى، فى أعقاب ثورة ١٩١٧م فى روسيا، كان لا بد أن يحقق التحرر اليهودى بعيد المنال، فإن الأمر لم يكن كذلك. ذلك أن سنوات الستالينية الطويلة قد أعادت لفترة مشاعر معاداة السامية التى تستميل الجمهور، لدرجة أنه عندما تفكك الاتحاد السوڤييتى فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين، حدث خروج جماعى لما يزيد على مليون يهودى سوڤييتى.

ولكن هنا كان الاختبار. هل كانوا سيختارون أمريكا أم إسرائيل؟ لقد اختارت أعداد هائلة منهم الذهاب إلى أمريكا حينما كان ذلك ممكنا،مستغلين التأشيرات الإسرائيلية

التى حصلوا عليها. وتم إيقاف ذلك سنة ١٩٨٩م (Beit Hallahmi 1992, 198)[٩]. إذ إن زعيم الجناح اليمينى الإسرائيلى إسحاق شامير قد أصابه الهلع. وهنا كانت النظرية الصهيونية عن التاريخ اليهودى قد انقلبت أمام عيون العالم. واتصل شامير بالرئيس ريجان لعقد صفقة مؤداها: ساعدونا على إعادة توجيه هؤلاء المهاجرين إلى إسرائيل، ونحن سوف نكون أصدقاءكم بدرجة أكبر وسوف نتبع سياساتكم فى الشرق الأوسط بقدر أكبر من القوة. ووافق ريجان بروح متعاطفة. وسوف يكشف أحد الفصول اللاحقة بقدر أكبر تفاصيل العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل فى ذلك الوقت. وهنا نحتاج أن نستنتج فقط أن الولايات المتحدة كانت تلعب اللعبة الصهيونية خدمة لمصالحها الخاصة. أما اليهود السوفييت، فإن مفهومهم عن التحرير كان قد تم إحباطه فعلاً وحقًا عندما وجدوا أنفسهم مخالب السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط وأنهم مجبرون على الحياة فى أقل الأماكن أمنا بالنسبة لليهود من أى مكان آخر فى العالم.

* * *